لوي ألتوسير والقراءة العلمية للماركسية

الدكتورة خيرة بورنان

جامعة المسيلة

الملخص

إذا كانت السمة الغالبة على الفلسفة الحديثة هو تعدد أنساقها، فإن السمة الغالبة على الفلسفة المعاصرة(الفرنسية) هو تعدد مناهجها من جهة، و نزوعها نحو قراءة و إعادة قراة التراث الفلسفي خاصة الحديث منه وفقا لهذه المناهج، يبدو هذا الأمر واضحا لدى الفلاسفة البنيويون. من ذلك قراءة لوي ألتوسير لكارل ماركس قصد اضفاء الصفة العلمية على الماركيسة بعد أن استحالت إلى نزعة انسانية /تاريخية وتحولت إلى إيديولوجيا على يد أولئك الذين لم يحسنوا قراءة ماركس و قراءة رأس المال.

Summary

if the predominant characteristic of modern philosophy is its multiplicity, the predominant characteristic of contemporary French philosophy is its multiplicity of approaches and its tendency to read and re-read the philosophical heritage, especially in accordance with these approaches. This is clear to the structural philosophers.

This was the reading of Louis Althusser for Karl Marx, whose purpose was to classify the Marxism after it had become humanist / historical and turned into an

إذا كانت السمة الغالبة على الفلسفة الحديثة هو تعدد أنساقها، فإن السمة الغالبة على الفلسفة المعاصرة والفرنسية منها على وجه التحديد هو تعدد مناهجها من جهة، ونزوعها نحو قراءة وإعادة قراة التراث الفلسفي خاصة الحديث منه وفقا لهذه المناهج.

يبدو هذا الأمر واضحا لدى الفلاسفة البنيويون. من ذلك قراءة ميشيل فوكو لبنية الفكر الغربي قصد الكشف عن الوجه السالب للحداثة الغربية. وقراءة جاك لاكان لفرويد التي رام من خلالها تحرير المتن الفرويدي مما لحق به من تحريف وتشويه جراء القراءات الخاطئة والتبسيطية، ومن ذلك أيضا قراءة لوي ألتوسيرللماركسية

والثابت أن البنيوية غداة نشأتها بدت كأنها المنهج العلمي الذي سينقذ العلوم الإنسانية مما آلت إليه، وأنها الخيار الأنسب للعديد من الفلاسفة الذين يشكلون ما يعرف في تاريخ الفلسفة(الفرنسية) بالبنيوية يتعلق الأمر بستروس، فوكو، ألتوسير ولاكان.

ولهذا جاءت بواكير كتاباتهم ترسيخا لمبادئ البنيوية ولعلم اللغة البنيوي، بدا ذلك جليا في «البنى الأولية للقرابة» لستروس و«تاريخ الجنون» و«الكلمات والأشياء» لفوكو، و«قراءة رأس المال» لألتوسير و«كتابات» لجاك لاكان. والمشترك في هذه المؤلفات أنَّ حقيقة الإنسان بات يشكلها المسكوت عنه Le nom dit أو خطاب الصمت. وقد آل

هؤلاء الفلاسفة- على أن يجعلوا هذا الصمت منطوقا واللاوعي واعيا وأن يخرجوا العلوم الإنسانية من مرحلة ما قبل العلمية إلى مرحلة العلمية.

وهدف هذا المقال تحليل الأطروحة الألتوسيرية المتعلقة أساسا بطبيعة العلاقة بين الماركسية والبنيوية، عبرقراءة ألتوسير لكارل ماركس. كل ذلك من خلال الإشكال التالي: على أي نحو قرأ لويس ألتوسير كارل ماركس؟ وهل تمكن ألتوسير من اضفاء الطابع العلمي من خلال قراءة ماركس قراءة بنيوية؟

وقصد الإجابة هذا الإشكال سنركز على العناصر الآتية:

- **البنيوية**
- **تاريخ العلاقة بين البنيوية و الماركسية**
- **ألتوسير والقراءة التشخصية لرأس المال**

أولا: البنيوية

الحديث عن البنيوية هو بوجه من الوجوه حديث عن تيار فكري معاصر رغم حداثة نشأته إلا أنه تغلل وبشكل كبير في الفلسفة والعلوم الإنسانية والأدب والفن وغيره، تغلغلا يوحي بأن البنيوية قد أصبحت واجبا فكريا يتوجب على كل مفكر تبنيه بالدفاع عنه أو تفنيد دعاويه.

وعلى الرغم من أنَّ البنيوية بلغت أوج ازدهارها في الستينيات من القرن العشرين، ورغم الطابع الثوري لها إلا أنَّ نشأتها لم تكن كذلك ومن

الخطأ الاعتقاد بأنَّها تفتقر إلى وجود جذور(أصول) عميقة ضاربة في الماضي وفي المذاهب الفكرية والفلسفية السابقة لهذا القرن.

إنَّ مقولة البنية وكثير من الأفكار الأساسية الّتي تكمن وراء البنية كانت موجودة بل وحتى شائعة في الفكر الغربي في كثير من كتابات القرن التاسع عشر، وهذا ما يؤكده الفيلسوف الفرنسي ذو التوجه الماركسي،**لوسيان سيف Lucien Sève** (1926 ـ؟) ذلك أنَّ الأبحاث الرئيسية التي تعتبر أساس البنيوية المعاصرة يرجع معظمها إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى.في مجال اللغويات يمكن الإشارة إلى أعمال **دي سوسير**، وفيما بعد إلى أعمال **تروبتسكوي** و**ياكبسون**، وفي مجال علم النفس إلى أعمال منظري الجشطالت،و من ناحية أخرى إلى أعمال **فرويد**. وفي الحقل الفلسفي يمكن الإشارة إلى **هوسرل** وأعمال **باشلار** اللاحقة حول قضايا الفلسفية للعلم[1].

ويتفق البنيويون، على أفكار أساسية تشكل مبادئ البنيوية، ويأتي على رأس هذه المبادئ مبدأين اثنين: يتعلق **المبدأ الأول:** بإنكار الذات ورفض النزعة الإنسانية من خلال قولهم بأن الفاعل الحقيقي هو البنية(النسق) وليس الإنسان. أما **المبدأ الثاني:** فيتعلق برفض النزعة التاريخية من خلال قولهم بأولوية التزامن على التعاقب.إن هذين المبدأين ورغم أهميتهما عند البنيويين فإنهما يشكلان نقطة الارتكاز للانتقادات التي طالت البنيوية.

لكن، وإن يكن من اليسر الاتفاق على أصول البنيوية ومبادئها، فإن جدلا حدا يحتدم بشأن طبيعة البنيوية: فهل البنيوية مجرد مذهب فلسفي يضاف إلى سلسلة المذاهب الفلسفية المعروفة عبر تاريخ الفلسفة، أو هي منهج علمي يراد من خلاله دراسة العلوم الإنسانية دراسة علمية تضفي إلى نتائج تضاهي في دقتها نتائج العلوم الطبيعية؟ بمعنى أوجز: هل البنيوية أداة علمية أم مذهب فكري فلسفي، وإيديولوجي كباقي الفلسفات والإيديولوجيات الأخرى؟

سؤال يطرحه كل من يبادر بدراسة البنيوية، ولن يجد كبير عناء في العثور على الإجابةذلك أن مواقف المفكرين والدارسين لها تباينت تباينا واضحا؛ من لا يرى في البنيوية إلا منهجا، وليس أكثر من منهج، وأنها لا يمكن أن تكون مذهبا فلسفيا، فلا يمكننا الحديث عن البنيوية كما نتحدث عن الوجودية « **لأن البنيوية ما هي إلا منهج بحث وطريقة معينة يتناول بها الباحث المعطيات التي تنتمي إلى حقل معين من حقول المعرفة بحيث يخضع هذه المعطيات فيما يقول البنيويون إلى المعايير العقلية**»[2]. ويبدو هذا الأمر غاية في الوضوح عند الأنتروبولوجي البنيوي**كلود ليفي ستروس** إذ يعلن منذ البداية أن البنيوية ليست بأي حال من الأحوال فلسفة وإنَّما هي مجرد منهج للبحث العلمي يقول:« **أبحاث البنية لا تطالب بمجال خاص بين وقائع المجتمع؛ إنها تؤلف بالأحرى منهجا خاصا قابلا للتطبيق على مسائل إتنولوجية**

متنوعة وتنتمي إلى أشكال تحليل بنيوي مستعملة في مجالات أخرى»[3].ومعنى هذا أن البنيوية توجه منهجي داخل العلوم الطبيعية والإنسانية، يهدف الى تحليل البنيات الأساسية للموضوعات والأشياء.

وبالنَّظر إلى التاريخ العلمي للبنيوية، يقرر **جان بياجيه** أن«**الدرس الذي يجب أن نستخلصه من هذا التاريخ هو أن البنيوية لا يمكن أن تشكل موضوعا لعقيدة أو لفلسفة وإلا لأمكن تجاوزها بسرعة بل تشكل بالضرورة طريقة مع كل ما تنطوي عليه هذه اللفظة من التقنية ومن الالتزامات والشرف الفكري**»[4]، فالبنيويةمنهج علمي.

وتتميز البنية حسب **بياجيه**بثلاثة خصائص هي: **الكلية، التحولات الضبط الذاتي**[5].وهذه الخصائص تعد بمثابة القانون العام الذي يحكم عمل مختلف البنى مهماكانت طبيعتها.

وفي مقابل هذا الطرح هنالكمن لا يرى في البنيوية إلا الجانب النظري معتبرا إياها مجموعة من النظريات في اللغة والاجتماع والفلسفة وهي بهذا المعنى مجرد نظرية إيديولوجية تضاف إلى باقي نظريات وايديولوجيات القرن العشرين. وفي هذا الصدد لا يتردد **ريمون بودون** في رفضه للمنهج البنيوي ومؤكدا على الجانب النظري فقط، ذلك أن البنيوية منظورا أكثر منها طريقة، والسبب في رأيه يعود الى أن الثورة المنهجية التي تدعي البنيوية القيام بها كانت موجودة سابقا في العلوم الطبيعية والاجتماعية كعلم الاجتماع والاقتصاد.

وبعيدا عن هذا الجدل حول طبيعة البنيوية يمكن القول مع محمد سبيلا أن« **البنيوية تمثل المحاولة الجادة لاتخاذ موقف علمي وإبستيمولوجي جديد يخرج "العلوم" الانسانية من مرحلة ما قبل العلمية إلى مرحلة العلمية»**. وهي محاولة لا تخلو من ملامح مذهبية وفلسفية معينة. ومن الفلاسفة البنيويينالذين حاولوا اضفاء الموصوف المنهجي ومن ثم العلمي على الماركسية نجد **لويس ألتوسير**.

ثانيا: تاريخ العلاقة بين البنيوية والماركسية

إذا كانت علاقة البنيوية بالوجودية اتسمت بالتوتر وصل حد المعارك الفكرية بين أقطاب الفلسفتين(سارتر/ ستروس)، فإنَّ موقف البنيوية من الماركسية بحسب **لوسيان سيف** موقف ملتبس: فمن ناحية تعتبرها وثيقة الصلة بها أو في الأقل سلفها، ومن الناحية الأخرى ترفضها بوصفها الفرعالميت في شجرة التسلسل البنيوية[6].

لكن ما هو واضح وضوحا لا لبس فيه هو أنّ البنيوية اعتبرت في البداية قريبة من الماركسية، فمفهوم البنية في حد ذاته ليس جديدا على الماركسية، ويمكن القول بحق أنّ **ماركس** أول من أثبت قيمة المنهج البنيوي في تحليله للظواهر الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي، في منتصف القرن التاسع عشر، قبل استخدام هذا المنهج في علم اللغات وعلم أصول السلالات البشرية والتحليل النفسي.

والثابت أن أقطاب البنيوية وأوَّلهم **كلود ليفيستروس** لا ينكرون استعارتهم ذلك المفهوم من الديالكتيك الماركسي، حتى بدا في نظر كثير من المثقفين وكأنّ البنيوية أصبحت الشكل الجديد الدقيق لمعانقة المبادئ الماركسية الأصلية في ظل أعمال بعض كبار المفكرين والباحثين، مما جعل مبادئهم تبدو كما لو كانت صياغة علمية حديثة للماركسية التي تنزع الى التخلص مما شابها تقليديا من السلطة الطاغية للحكم الحزبي.

وفي الواقع إعلان نهاية الفلسفة باسم علوم الإنسان، والنقد الجذري لمجمل الايديولوجيا الذاتية للإنسانية على أساس تحليل الظروف الموضوعية لكل حقيقة إنسانية كانت دائما مبادئ ماركسية، قبل أن تكون بنيوية، هذا ما وجده **ألتوسير** عند إعادة قراءته لرأس المال[7].

لكن لماذا لا يعتبر البنيويون أنفسهم مجرد ماركسيين، ولماذا يصرون على تسمية المنهج الذي يزعمون أنهم استعاروه من **ماركس**، بنيويا وليس ديالكتيكيا؟

إنَّ رفض البنيوية التماثل مع المادية الديالكتيكية ليس مجرد قضية مصطلحات أو حفاظ على مكانة نظرية، بل تعبير عن اختلافها الجوهري عن الماركسية، يبرز هذا في ما يلي:

-البنيوية لا تؤكد على مجرد الأولوية المنهجية للتزامن على التعاقب بل تفصل جوهرهما بشكل أساس بحيث تستبعد أيّة وحدة داخلية. وفي الوقت الذي تقر فيه بتطور البنى المختلفة مع الزمن، لا تتناول ذلك

كعملية تنعكس في المستقبل، بل كحركة تتجه نحو الكمال، ومن ثمّ الركود. فالتاريخ بدلا من أن يكون نقطة انطلاق إلى ما لا نهايةما هو إلا نهاية، إنه كابح أكثر منه محرك. وحيثما تعترف البنيوية بحدوث تغيرات في البنى فإنها تعتبرها مجرد«**انفجارللبنية**»ناجم عن اصطدامها بظروف خارجية. وهذا يتجاهل القوانين الداخلية للتطور التاريخي.

–مقارنة بالفهم الديالكتيكي للبنية والتاريخ في وحدتهما العميقة، تؤكد البنيوية التي تتجاهل هذه الوحدة على الثبات النسبي للبنى. وهذا يتركها تدور في حلقة مفرغة تتذبذب بين البنى التي لا تأريخ لها، والتاريخ الذي لا بنى حقيقية له. في المقابل تقدم الماركسية فهما عقلانيا عميقا لوحدة البنية والتاريخ وتكشف عن القوة الدافعة لكل العمليات التي هي التناقض الديالكتيكي، وهو أمر غريب على البنيوية، فهي لا تقر إلا بتجاور للحقائق يكمل بعضها بعضا. وهي بتجاهلها للتناقضات الديالكتيكية، تلك الحلقة الموصلة بين التاريخ والبنية، تقع في مأزق المثالية الأنتربولوجية واعتباطية الوصفات الإبستمولوجية.

– تنظر البنيوية إلى الأبنية الشاملة على أنها أنساق لا زمنية منتظمة ذاتيا، في حين أن الماركسيين ينظرون إليها على أنها أنساق تاريخية مشحونة بالتناقضات.

–واذا كانت الماركسية قد وضعت حدا للأفكار الميتافيزيقية المجردة عن الطبيعة الإنسانية، فإن البنيوية تتجاهل في الواقع الطبيعة الاجتماعية

للإنسان وتحوّل العلوم الإنسانية نحو مملكة التأمل التجريدي والميتافيزيقي[8]. وهذا هو ما منعها من فهم المعنى الحقيقي للتاريخ وبصورة خاصة قوانين الصراع الطبقي.

رغم الاختلافات الجوهريةهذه، هناك من الفلاسفة من سعى إلى إيجاد عناصر بنيوية أصيلة في فكر **ماركس** خاصة، وبين هؤلاء **لويألتوسير**. والحقيقة أن هذا الفيلسوف لم يكن أوّل من سعى إلى ذلك فقد سبقه إلى ذلك مواطنه **لوسيان سيباغLucien Sebag**(1933- 1965). ففي مقدّمة كتابه(البنيوية والماركسية) كشف عن سبب جمْعه بينهما حيث قال:« **في هذا المنظور طرحنا مسألة العلاقات بين الماركسيّة والبنيويّة فالأولى لكونها اعتُبرت نظريّة شاملة للظّاهرة الاجتماعيّة، والثّانية لكونها منهجا صالحا لتوضيح معقوليّة الوقائع البشرية**»[9]. والمعنى الذي أراد **سيباغ** إلحاقه بالماركسية أو تأكيد وجوده فيها هو **الكلية la totalité** المبدأ البنيوي المطبق وقتها في العلوم الإنسانيّة عامة وفي الأنتربولوجيا البنيوية خاصة.

ويبدو أنّ تحمس**سيباغ**لإثبات هذه الفكرة قد أدي به إلى الانحياز إلى البنيوية وانكار عناصر أساسية في الماركسية، ومن ذلك رفضه للصورة التقليدية بين البنية التحتية والبنية الفوقية بوصف الأولى سببا مطلقا للثانية، في حين ومن منظور بنيوي تتحكم البنية العقلية بوصفها بنية شاملة، في البنية التحتية والبنية الفوقية على السواء.

وما يلزم عن ذلك أنّه لا أولوية مطلقة لعامل بعينه من عناصر البناء؛ فالعامل الاقتصادي هو مجرد عنصر من العناصر التي ينطوي عليها البناء وليس هو أساس البناء كله، وبالتالي لا أولوية له في مجال تفسير التاريخ، والعلاقات الاقتصادية وأنظمة القرابة واللغة والأساطير تمثل كلا متكاملا، مع امكانية احتفاظ كل عنصر بسماته المميزة التي يمكن استخلاصها بعملية ذهنية متعمدة[9].و هناك تفاعل دائم بين هذه الميادين جميعا، بحيث لا مجال للمفاضلة بين هذه العناصر.

كما ترتبط البنيوية بالماركسية من جهة ما يعرف في تاريخ البنيوية **بالبنيوية التكوينية** أو **التوليديةGénétiqueStructuralisme**، وقد نشأت هذه الأخيرة استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد والماركسيين للتوفيق بين أطروحات البنيوية في صيغتها الشكلانية وأُسس الفكر الماركسي أو الجدلي، اذ عملت هذه المدرسة على إحياء المفهومات الماركسية، كما تجلت في أعمال **جورجلوكاش GeorgLukács**(1885-1971) الذي طور النظرية النقدية الماركسية، باتجاهات سمحت لتيار البنيوية التكوينية بالظهور على النحو الذي ظهرت به.

وقد استوعب الناقد الروماني الأصل والفرنسي الموطن **لوسيانغولدمانLucienGoldman**(1913-1970)الإرث النظري لأستاذه **لوكاش** فيما يتعلق بمفاهيم البنية، والشكل، والنظرة الشمولية، ثم

صاغ مقولات جعلها أساسا لدراسة أعماله، قصد الوصول إلى الكشف عن التصورات الفكرية التي تحملها، وعلاقتها ببنية تكوينها. كما أفاد **غولدمان** أيضا من أطروحات **بياجيه**، حيث استعار منه **«مصطلح البنيوية التكوينية»**[10]وجعله كمقابل للبنيوية الشكلية.

ويتحدد مفهوم البنية في الاتجاه البنيوي التكويني بـ:

-تشترط البنية الكلية والتحول والتكون.

-تقوم البنية باعتبارها مجموعة، على نوع من الضبط الذاتي.

-لا يمكن إدراك البنية إلا ضمن تكونها وتطورها، معنى هذا أن البنية لا تتنافى والتغير بعكس البنية في مفهوم **ليفي ستروس** وغيره من البنيويين الصوريين التي تفرض الثبات.

-تقوم البنية في المفهوم التكويني، على جدلية الفهم والتفسير والتزامن والتعاقب[11].

من خلال هذه الخصائص يظهر أن القاسم المشترك بين البنيوية التكوينية والبنيوية الشكلية هو مفهوم البنية، وأن جذر الخلاف بينهما هو أن البنيوية الشكلية تلغي فاعلية الذات وتلغي التاريخ، وتُحِل هذه البنيوية مَحَل الذات الملغاة نسقا مجردا متعاليا بلا ذات، إلى درجة تصبح معها البنية نظاما شكليا منغلقا على نفسه، نظاما ينطوي على تحولات داخلية لا تخضع لأي شيء سوى هذا النظام، ولا تتصل بأي شيء خارجه. وهذا ما نجده عند **لوي ألتوسير**.

ثانيا:ألتوسير والقراءة التشخصية لرأس المال

يواصل **لويس ألتوسير** قراءة الماركسية قراءة بنيوية، و« **كما كانت العودة إلى فرويد عند لاكان أكثر من مجرد قراءة حرفية لنصوص واضع التحليل النفسي، فإنَّ قراءة ماركس أيضا قد جاءت أكثر من مجرد تعليق لفظي على كتابات صاحب المادية الجدلية أو المادية التاريخية»**[12]، فقراءة **ألتوسير** الجديدة تنطوي ـ حسب **ريمون آرون** ـ على وعد بإحياء الماركسيةواكتشاف الخطاب الماركسي العلمي من خلال قراءة ماركس قراءة بنيوية[13].مستفيدا في ذلك من التقدم الذي أحرزته بعض العلوم الإنسانية مثل: التحليل النفسي وعلم اللغة البنيوي والنتائج التي توصلت إليها، وهي أمور لم تُتح لمعظم الشراح والمفسرين الذين سبقوه.

إلا أن إعادة القراءة هذه لم تكن لتتم بالصورة لولا اعتمادها،على مجمل الدرس الذي كانت تبسطه أعمال**جورج كانغلايهم** و**ميشيل فوكو**في تاريخ العلوم، و من قبلهما **باشلار وكافاياس**[14]، وقد أعطى ذلك لتحليلاته أبعادا جديدة وأكسبها درجة عالية من العمق والأصالة، خرجت بها عن أن تكون مجرد شروح وتفسيرات. وعلى طريقة اللغويين البنيويين وجد **ألتوسير** في نفسه **القارئ اللامع أو الممتاز**[15] القادر على النفاذ في نص **ماركس**، والقادر على رؤية من هو **ماركس** على الحقيقة.

لكن ما هي الأسباب الأساسية التي دفعت **ألتوسير** صوب هذه القراءة؟ يلخص عمر مهيبل ذلك في سببين: السبب الأوَّل، هو شعوره بالبؤس النظري الذي تعانيهاالفلسفة الماركسية نتيجة انصراف الماركسيين الفرنسيين إلى السياسة، ونتيجة موقف الفلسفة الجامعية الفرنسية من الماركسية، فهذه الفلسفة على حد قول ألتوسير :« **دفنت ماركس في تراب الجيفcadavres خلال قرن تقريبا»**[16]. أما السبب الثاني، فيتمثل في الرد على النزعة الإنسانية التي روج لها بعض الماركسيين الفرنسيين أمثال جارودي، والتي رأى فيها **ألتوسير** إفقارا للماركسية، وتجاوزا لطابعها العلمي[17].

أما السبب الثاني، فيتعلق بمحاولة ألتوسير إحداث القطيعة بين الخطاب الماركسي العلمي والنزعة الانسانية، كما تجلت في قراءة روجيه غارودي.

أدرك **ألتوسير** أنَّ المشكلة تتعلق بأعمال **ماركس** نفسه، حيث توجد اختلافات نظرية بين الأعمال الفلسفية المبكرة له وأعماله المتأخرة ويخطئ في نظره من يعتقد أن ثمة اتصالا لا ينقطع بين هذه الأعمال وكأن اللاحق منها يرتبط بالسابق ضرورة. لقد أخطأ في نظره أصحاب **نظرية المصادر** عندما اعتقدوا أن مؤلفات **ماركس** الأخيرة ومنها **رأس المال** يكمن جوهرها الحقيقي في الكتابات المبكرة، فهي المقدمة الضرورية لفهم النَّص الماركسي المتأخر. وبالمثل أخطأ أصحاب **نظرية**

التوقع، لما اعتبروا مؤلفات الشباب غير ناضجة أو أنها المرحلة الجنينية لمؤلفات النضج[18].

وإذ يرفض **ألتوسير** هاتين النظرتين بسبب طابعهما المثالي(*)، فإنه يؤكد وجود قطيعة بين هذه أعمال ماركس. ووفقا لهذا قسم **ألتوسير** مسار ماركس الفكري الى مرحلتين كبيرتين: مرحلة **الخطاب الإيديولوجي**(قبل 1845) وهي مرحلة الشباب التي كان فيها متأثرا بالفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ومرحلة **الخطابالعلمي**(بعد1845)، وهي مرحلة الكهولة والنضج التي قطع فيها **ماركس** مع ماضيه الإيديولوجي ليبلور مقاربة علمية تبدو بصورة واضحة في كتابه «**رأس المال**»[19]، هذا النَّص بالذات يحتاج إلى إعادة قراءة.

وفي إطار مشروعه لإعادة قراءة **ماركس**، وجد **ألتوسير** نفسه مضطرا إلى إعادة النّظر في مفهوم القراءة ذاتهماذا نقرأ؟أدى به ذلك إلى أن يميّز بين نوعين من القراءة:أما القراءة الأولى، يصفها ألتوسير تارة بـ**القراءة الحرفية**lecture littérale وتارة أخرى بـ**القراءة البريئة** lecture innocente، فينعت بها **ألتوسير** مؤلفات الشباب عند **ماركس**، حيث كان هذا الأخير «**يقرأ حضور الماهية "المجردة" في وجودها العيني "الشفاف"**»[20].

ينقلب**ألتوسير** على هذا النّوع من القراءة الساذجة لأنها ترى في الخطاب تعبيرا عن الحقيقة الأولى،كأنها تقرأ الحقيقة في كتاب مفتوح

كما كان **جاليلو** يقرأها في كتاب الطبيعة الكبير ذلك الكتاب الذي يمثل الخطاب الصامت الذي يتألف من مربعات ومثلثات ودوائر[21].إنَّ هذا النَّوع من القراءة لا يزود القارئ بالمفاتيح الحقيقية لفهم روح النَّص، بل إنّها تخطئ فهم حتّى هذه النصوص المكتوبة.

أمـــا القـــراءة الثانيـــة: «**القـــــراءة التشخيصـــــية SymptomaleLecture**»[22] التي يجب أن تُقرأ الماركسية وفقا لها فهي قراءة فلسفية، نقدية متشككة تتهم المباشر وترفض البديهيات إنّها قراءة تنحو إلى تتبع ما في الخطاب من فجوات وبياضات وأماكن يظهر فيها خطاب **ماركس** وكأنه **خطاب الصمت le discours du silence**على حد قول **ألتوسير**[23].

إنّها قراءة تبحث في لا وعي الخطاب، في صمته وتناقضاته، لا لشيء إلا لأنه لا توجد قراءة بريئة، بل أكثر من ذلك إنها قراءة تطالب بحقها في الخطأ. ويرى **ألتوسير** أنه منذ **فرويد** بدأنا نتهمالسمع والكلام وبدأنا نتساءل عن القصد منهما وأخذنا نكتشف خطاب اللاوعي[24].

ومن ثم يجعل **ألتوسير** من هذه القراءة الإبستمولوجية وسيلة للحكم على نصوص **ماركس**.ونص «**رأس المال**» ـ وكجواب عن سؤال:ماذا نقرأ؟ ـهو الذي يستحق القراءة من جديد، إذ يتساءل**ألتوسير**:« **كيف نتثبت من السمة المختلفة لموضوع رأس المال من دون قراءة نقدية إبستيمولوجية**»[25]. لقد قرئ الكتاب من قبل علماء الاقتصاد والمؤرخين

وحتّى المناطقة، لكنّه لم يقرأ من قبل فلاسفة ومنظرين يكشفون عن إشكاليته النَّظرية الجوهرية.

وقراءة «**رأس المال**» من الزاوية الفلسفية تعني التساؤل عن المكانة التي يحتلها في تاريخ المعرفة،ومن هنا يطرح **ألتوسير** جملة من الأسئلة: هل أن رأس المال هو مجرد نتاج إيديولوجي من بين نتاجات إيديولوجية أخرى؟ هل هو إعادة تشكيل هيجلي للاقتصاد الكلاسيكي(...) أو تحقيق لطموحات مثالية في «المسألة اليهودية» ومخطوطات 1844. هل أنّ رأس المال هو مجرد تكملة للاقتصاد السياسي الكلاسيكي ؟ وهل يتميز رأس المال عن الاقتصاد السياسي فقط بموضوعه ومنهجه الجدلي الذي اقتبسه من هيجل؟ أم أنه نقلة إبستمولوجية حقيقية في موضوعه ونظريته ومنهجه[26].

إن نص «**رأس المال**»في نظر **ألتوسير** نص مكتف بذاته فهو لا يحتاج إلى قراءته قراءة صحيحة إلا العودة إلى متنه هو بالذات، وكأن خارج هذا النص لا توجد حقيقة. إنه النص العلمي، أو النص النموذج. وهذا الامتياز النظري والإبستمولوجي يمنحه إمكانية أن يوفر المفاتيح لقراءة نصوص أخرى لماركس لا تتوفر على هذه الخاصية، من ذلك الإيديولوجيا الألمانية[27].

إنَّ أهم ما يميز قراءة **ألتوسير** لفلسفة **ماركس** عن غيرها من القراءات أنه يقرأ **ماركس** من خلال **ماركس** نفسه، وهذه **القراءة النقدية تشكل في**

مجموعها دائرة[28] حسب وصف **ألتوسير**، أي أن هناك دائرة بين المبدأ الذي يقيم أسس قراءة ما وموضوعها.

إنَّ تمييز الخطاب العلمي عن الخطاب اللاعلمي، واحداث القطيعة الإبستمولوجية بينهما يقتضي القيام بقراءة ارتدادية فـ«**بدلا من قراءة ماركس خطوة خطوة نقرأه ارتداديا أي انطلاقا مما نعرف أنه ماركسي لكي نؤسس ما هو ليس بماركسي حقيقة**»[29]، يعني هذا أن نقرأ الماضي (نصوص الشباب) من خلال الحاضر (نصوص النضج ـ رأس المال). وقد يفهم من هذا أن **ألتوسير** يقع في خطأ الدّور على النّحو الذي فهمت به **إديث كرزويل** منهج **ألتوسير**[30].

إن دفع هذا الانتقاد يأتينا من **ألتوسير** نفسه، ذلك أن هذا الدَّور هو سمة هامة تميز كل فلسفة هي موضوع ذاتها، وتنكشف لنا من خلال ديالكتيك الذهاب والإياب، من نص يزودنا بمفاتيح قراءته إلى قراءة نطبقها عليه من أجل الاهتداء إلى تلك المفاتيح نفسها في داخله[31].

ونقطة البدء عند **ألتوسير**، هي نقد القراءات السائدة في تفسير الماركسية وخاصة تلك التي ترى فيها مجرد امتداد للهيجلية، فعلى أي نَّحو انتقد هذا التفسير الشائع؟ وهل عَّدل **ماركس** الجدل الهيجلي فأوقفه على قدميه بعد أن كان واقفا على رأسه؟

الواقع أن **ماركس** كما يفهمه **ألتوسير**، لم يكن مجرد ناقد لهيجل ومصحح له اكتفى باقتباس الجدل منه مع ايقافه على قدميه بدلا من

رأسه، فعملية القلب هذه لم تكن إلا تعبيرا مجازيا، فبنية الجدل الماركسي مختلفة تماما عن بنية الجدل الهيجلي، فالجدل الماركسي يتضمن اتحاد الأضداد، لكن هذا الاتحاد ينطوي على حتمية متعددة الجوانب(مركبة) والوحدة الشاملة عند ماركس مثلا هي الاقتصاد ولذلك فهي وحدة بنيوية أما الجدل الهيجلي فيتضمن هوية الأضداد والوحدة الشاملة عند **هيجل** تتكون من كليات، وكذلك فهي وحدة مثالية. وأكد **ألتوسير** حتمية الجدل على نحو تتراكم فيه المتناقضات[32].

وليس حرص **ألتوسير** على طرد شبح **هيجل** من الفلسفة الماركسية سوى مجرد محاولة لتحرير المادية الجدلية من كل آثار الايديولوجيا الألمانية خصوصا في صورتها الهيجلية المثالية. إنَّ **ماركس** لم يدخل يوما العباءة الهيجلية ليخرج منها فالثابت أنّه لم يكن هيجليا في نضجه. والحديث على أنّه كان كذلك في شبابه لا يزيد عن كونه مجرد حديث خرافة[33].

كما تنبه **ألتوسير** إلى المخاطر التي أحدقت بالماركسية في حقلي الفكر، والسياسة معا من جراء تكالب نزعتين على نخر جسدها بتأويلات فاسدة تفضي إلى ذات المأزق: ارتداد الماركسية إلى مسلك عقائدي وتبريري يتعارض وروحها النقدية والتحررية، وفلسفة مكتملة تتنافى وروحها الجدلية المتصلة بالبراكسيس والتاريخ. وهاتان النزعتان هما:

النزعة الإنسانية، النزعة التاريخية. وتوجه من خلال مشروعه الإبستمولوجي لنقد هاتين النزعتين وكشف تهافتهما وفسادهما النظريين.

إنَّ الجدل الذي دار حول أزمة النزعة الإنسانية في الفكر الغربي المعاصر، والذي دشنته الأطروحة الهيدجرية وواصلته أعمال البنيوية الفرنسية، تمخض عنه انقسام الماركسيين إلى اتجاهين، تجاذبا حقل التأويل والتأويل المضاد لما يفترض أن يكون الموقف الأصلي للماركسية من النزعة الإنسانية.

أما **الاتجاه الأول**، ويعد **روجيه غارودي** أحد أبرز ممثليه حاول إبراز البعد الإنساني في الماركسية، بالاستناد على الأعمال الفلسفية لمرحلة الشباب معتبرا (مخطوطات 1844)نقطة انطلاق فكر **ماركس**، ومرحلة حاسمة في تكوين النظرية الماركسية[34].

وبرزت مع **الاتجاه الثاني** محاولة **ألتوسير** لإعادة قراءة الماركسية في خطوط التماس مع الفلسفة البنيوية، وهي محاولة تميزت بخصوصية نظرية مكنتها من تجاوز الرهانات التقليدية للجدل الفلسفي حول مفهوم الإنسان، بكشفها الصريح عن الرهانات السياسية التي توجد خلف كل نقاش حول النزعة الإنسانية.

وانتهى **ألتوسير**، من خلال انتقاداته تلك إلى أطروحة فلسفية جذرية تقول أن الماركسية تتحدد في المقام الأخير بوصفها علما يتعارض مع كل نزعة إنسانية « **وبالفعل إذا ما فحصنا النصوص التي يمكن**

اعتبارها حاسمة في الفلسفة الماركسية، فإننا نرى أنه لا توجد فيها أية مقولة للإنسان(...) بل هي، على العكس من ذلك، قد أقيمت لكي ترفض مثل هذه التأويلات من حيث هي نوع من أنواع المثالية، ولكي تدعو إلى التفكير بشكل آخر مختلف كل الاختلاف»[35]. الماركسية نظريا ضد النزعة الانسانية؛ فهي لم تقم على أساس البحث والتنقيب عن جوهر الإنسان، ولم تسهم في تشييد مملكة الذات، بمعنى أن خطابها لم يحمل نزعة إنسانية تتحدث إلى البشر عن أشياء لا يقدرون على حملها أو الإتيان بها.

لقد أحدث **ماركس** نقلة جذرية لحقل تحليله لمفهوم الإنسان؛ من الماهية الإنسانية إلى العلاقات الاجتماعية، ومن ثم فإن الاكتشاف الحاسم لـ **ماركس** على المستوى النظري يكون هو أن الإنسان لا يوجد إنّما العلاقات الاجتماعية هي التي توجد، ليس ثمة ذات بل ثمة بنيات اجتماعية·كما عرفت الماركسية في إطار الفهم السيئ ـ الخاطئ لها كواحدة من تلك النظريات التي انشغلت بفكرة التاريخ المستمر المتدفق الذي يضم بين جنباته التعاقب وانتشار أنماط الحياة أو الانتاج. ولذلك قدم **ماركس** في نظر هؤلاء أقوى اعتراف بالتاريخانية **Historicisme** غير أن الأمر في نظر **ألتوسير** على النقيض تماما، ذلك « **أنّ الماركسية من الناحية النظرية ضد التاريخانية، وضد النزعة**

الانسانية»[36] فهي في مرحلته الثانية نزعة مضادة للإنسان والتاريخ وهنا يتفق **ألتوسير** مع البنيويينفي موقفهم المعارض للتاريخ.

والسؤال الذي لا يزال يراود الكثيرين حتى الآن هو: إلى أي حد كان **ألتوسير** بنيويا(**)رغم ماركسيته أو مع ماركسيته؟ الواقع أنّ عددا كبيرا من الكتاب يعتبرون **ألتوسير** مفكرا بنيويا في المحل الأول، لقد شارك البنيويين ولعهم الشديد بفكرة البناء التي تستلزم اتخاذ موقف نقدي صريح منالنزعتين الإنسانية والتاريخية، كما تبنى نظرتهم الى العلاقة بين الكل والجزء، وبين البنية والنسق، وظهر أثر ذلك بوضوح في تفسيره لبعض القضايا الماركسية الأساسية التي أسيء فهمها مثل مشكلة الحتمية الاقتصادية.

أراد **ألتوسير** تخليص الماركسية من أوهام الإيديولوجيا، والمثالية التي أغرقتها في متاهات البؤس النظري، ومن ثم اجتهد في ابراز الأطر العلمية والمنهجية التي تَأَسَسَ عليها فكر **ماركس** في فترةالنضج. وبلغ تقدير الدقة العلمية أقصى مداه لدى **جان لاكروا** حين كتب قائلا: **«أعتقد أن التأويل الذي قدمه لنا ألتوسير لماركس غير قابل للدحض»**[37]. كما توخى **ألتوسير** تفعيل الفلسفة الماركسية الفرنسية مدخلاإيَّاها مرة أخرى في حوار مع بقية الفلسفة الفرنسية.

ومع ذلك فمحاولته قراءة **ماركس** قراءة بنيوية جعلته يرى فيه ما لم يكتبه **ماركس** نفسه، وما لم يقصد إليه من كتاباته: **رأس مال** بلا جدل

وتاريخا بلا بشر[38]. إن **ألتوسير**لم يكتف بعدم السير في الاتجاه الرئيسي للماركسية وإنما خرج عليها تماما وسلك طريقا آخر بعيدا عنها كل البعد.

ومهما تكن قيمة الانتقادات التي وجهت لـ **ألتوسير** من قبل الفلاسفة ـ لا يتسع المقام لذكرها ـ فإننا لا نستطيع أن ننكر القيمة المعرفية للمقاربة الألتوسيرية، حيث أثرت الماركسية وكشفت عن نواح مستورة فيها لم تكن متاحة من قبل بسبب القراءة الساذجة.

الهوامش:

1- لوسيان سيف: البنيوية والماركسية، ص 11.

2-جون ستروك: البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة، محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة(206) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص 7.

3-كلود ستروس: الأنتربولوجيا البنيوية، ج1، ص 327،328.

4-جان بياجيه: البنيوية، ص8، 9.

5-لوسيان سيف: الماركسية والبنيوية، ص 16.

6-نفسه، ص35.

7-لوسيان سيف: المرجع نفسه، ص 35.

8-Lucien Sebag:Marxisme et Structuralisme, Payot, Paris, 1964. p12. «C'est dans cette perspective que nous avons posé la question des rapports entre le marxisme et le structuralisme, le premier étant compris comme théorie totalisante du phénomène social, le second comme méthode propre à mettre en évidence l'intelligibilité des faits humains».

9-Ibid, p141-142.

10- ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، ص 76،77.

11-الزواوي بغورة: المنهج البنيوي، ص98.

12-زكريا ابراهيم: مشكلة البنية، ص 191.

13-إديث كرزويل: عصر البنيوية، ص 90.

14-Louis Althusser : Lire le Capital,T1, Éd : Maspero. Paris, 1973, p 13.

عبر ألتوسير عن هذا الاعتماد في شكل دين نظري، بقوله:«إنّني أصر على الاعتراف بالدّين، الصريح أو الضمني، الذي يربطنا بهؤلاء المعلمين الكبار في قراءة آثار المعرفة، الذين كانوا بالنسبة لناباشلار وكافاياس بالأمس، والذين هم بالنسبة إلينا اليوم كانغلايهم وفوكو».(ورد هذا القول في هامش الصفحة 13 قراءة رأس المال).

15-إديث كرزويل: عصر البنيوية، ص 73.

16-نقلا عن عمر مهيبل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط3، 2010، ص213.

17-عمر مهيبل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط3، 2010، ص204، 205.

18- هشام غصيب: هل هناك عقل عربي؟ المؤسسة العربية للدراسات و النشر ـــــ بيروت، دار التنوير العلمي - عمان ص149.

(*)يظهر الطابع المثالي للنظريتين في الافتراضات الآتية:

-**الافتراض التحليلي:** الذي ينظر الى كل نسق فكري نظري على أنّه قابل للرد الى مجموعة العناصر التي تشكله، ثم التفكير في كل عنصر حسب خصوصيته وانعزاله عن غيره، فيسمح ذلك بمقارنته بمثيله في نسق أو منظومة أخرى.

-**الافتراض الغائي:** ويتمثل هذا الافتراض في تأسيس محكمة سرية للتاريخ تمارس حكمها على الأفكار المقدمة اليها من موقع نص معين ووفق قواعد مستمدة من هذا النص. وهي تلجأ إلى حل النظم الفكرية المختلفة الى عناصرها وتقيس كل عنصر على حدى من منظور حقيقته الكامنة في هذه القواعد.

-**الافتراض المثالي:** يتمثل الافتراض في اعتبار تاريخ الفكر قائما في ذاته ومولدا لذاته، وفي الاعتقاد بأنه مبدأ ادراك عالم الايديولوجيا يكمن فيه، بمعنى أن الايديولوجيا تدرك بذاتها ولذاتها.(عمر مهيبل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص217،218.هشام غصيب: هل هناك عقل عربي؟ص 149، 150).

19-عمر مهيبل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص208.

20- Louis Althusser : Lire le Capital,T1, p 13«Lire (…) la présence de l'essence "abstraite" dans la transparence de son existence "concrète"»

21- Louis Althusser : Lire le Capital,T1, p 13.

22- Louis Althusser : Lire le Capital,T1, p 28,29,34,36,106.

23- Ibid, p 106.

24- Ibid, p 12,13.

25- Louis A Althusser : Lire le Capital,T1, 90. «Comment fixer avec quelques néttété la spicifique différentielle de l'objet du capitale sans une lecture critique et epistemologique»

26- Louis A Althusser : Lire le Capital,T1, p11-12.

27– بول ريكور:محاضرات في الإيديولوجيا و اليوتوبيا، ترجمة، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة، ليبيا، ط1، 2002، ص185.

28- Louis A Althusser : Lire le Capital,T1, p88.

29-بول ريكور: محاضرات في الإيديولوجيا و اليوتوبيا، ص185.

30-إديث كرزويل: عصر البنيوية، ص 75.

31-زكريا ابراهيم: مشكلة البنية، ص197.

32-إديث كرزويل: عصر البنيوية، ص 79.

33-زكريا ابراهيم: مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، سلسلة مشكلات فلسفية (8)، مكتبة مصر - دار مصر للطباعة القاهرة، 1976، ص 200.

34-روجيه غارودي:الماركسية، ترجمة، محمد الأمين بحري، دار الحكمة، الجزائر،2009، ص101.

35-لوي ألتوسير: ماركس والنزعة الإنسانية، ترجمة، محمد سبيلا، http://mohamed-sabila.com/nossos4.html

36- Louis Althusser : Lire le Capital,T1, p150.

(*) ما تجدر الإشارة إليه أن ألتوسير شأنه شان لاكان وفوكو ينكر صلته بالبنيوية حيث يقول:« **إن الاتجاه العميق الذي يسود كل كتاباتي ـ على الرغم من الالتباسات اللفظية الراجعة إلى استخدام بعض المصطلحات ـ لا يرتبط بأيديولوجيا البنيوية، ونحن نأما أن يضع القارئ هذا التقرير ــ أو التحذير ــ موضع الاعتبار، مع العمل على التحقق من صحته، وبالتالي قبوله أو التسليم به**»(زكريا ابراهيم: مشكلة البنية، ص6.191 Louis Althusser : Lire le Capital,T1,).

37-روجيه غارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة، جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ـــ لبنان ط3، 1985، ص104.

38-روجيه غارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ص89 .